المصطلح : «حجاج»
تأصيل لفظه وتأثيل معناه

بحث كتبه السعيد أهرو*

essaidahraou@yahoo.fr

العلم جملة واحدة مؤتلفة، ثلثها الأول المفاهيم، وثلثها الأوسط المصطلحات، وثلثها الخاتم الاستدلالات؛ تنجرد المفاهيم في الذهن، وذلك تصور العلم، وتنجلي بالمصطلحات، وذلك لفظه، وتنتظم بالاستدلالات، وذلك تصديقه[1].

والوكد في هذه البحث ذلك الثلث النيط الوسط؛ وقولي فيه إنه لفظ العلم قول لا يأمن أن يخاصم فيه مخاصم، واستدراكي الذي أحترز به هو استئناف البيان بما يلي: ليس المصطلح مجرد لفظ، ولكنه لفظ تخيَّره العالِم ليؤدي به مفهوما متصورا في ذهنه تأدية ممكنة للألفاظ؛ فقولي إذاً لفظ يتضمن معناه بالضرورة، غير أن هذا المعنى اللفظي لا ينطبق على المفهوم كما ينطبق الطابق على نقشه، وإنما يدل عليه دلالة محدودة بحدود المادة؛ فإن الألفاظ، بحسب أبي سعيد السيرافي في المناظرة[2]، طينية لازبة، وليس في مَلْكها أن تستغرق المفاهيم، وهي ما عرفتَ في معقوليتها وبساطتها واتصالها، إلا إذا استوفى القمر جميع ضوء الشمس إذ يقبسه منها، فلا يقال إن القمر في منزلة تمامه يستنزل الشمس إليه، ولا يقال، سواء بسواء، إن المصطلح في موضع إحكامه يحضر المفهوم كل المفهوم بين يديه.

المصطلحات إذًا ألفاظ مقدرة لا مُشاحَّة فيها، ولكنها مع ذلك مفاتيح علوم عليها أقفالها؛ وهذه المصطلحات معادن، منها العتيقة العلقة كأنها حمر النعم، ومنها المولدة المهجنة كأنها البراذين[3]، بل منها المنقولة التي لا تفتأ تذكر أهلها، ومنها ما هو دون ذلك من مدخول ومغسول؛ ومصطلحنا الذي نتولاه هاهنا من ذلك الطراز الأول، وهو

---

* – أستاذ بأكاديمية التربية والتكوين، أكادير، ايداوتنان.

1 – السعيد أهرو: التعريف في البلاغة العربية.. أصوله وبنياته ووظائفه، رسالة دكتوراه مرقونة بكلية الآداب بجامعة القاضي عياض، مراكش، 2009، ص: 307.

2 – أبو حيان التوحيدي: الإمتاع والمؤانسة، تحقيق: أحمد أمين (و) علي الزين، المكتبة العصرية، بيروت، بدون تاريخ، ص: 126.

3 – البراذين ما كان من غير نتاج العرب من الخيل، أو كأنه المقرف من الخيل. لسان العرب لابن منظور، دار صادر، بيروت، 2005، مادة: برذن، ص: 58.

مصطلح «حجاج»؛ نقصُّ آثار لفظه في مدرجه الأول، وذلك حد تأصيله، ونمد إلى معناه الخاصي بمد إشاري من معناه العامي، وذلك حد تأثيله.

أ_ تأصيل المصطلح

لم يذكر مصطلح «حجاج» في القرآن الكريم، وإنما ذكرت فيه شقائق له من مثل: «حجة»، كما في الآية التاسعة والأربعين بعد المائة من سورة البقرة: (وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوْا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوْا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)؛ وكما في الآية الرابعة والستين من سورة النساء: (رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا)؛ ويذكر هذا اللفظ في الآية الرابعة والثمانين من سورة الأنعام مضافا إلى الحق سبحانه: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾؛ وفي هذه السورة عينها آية أخرى مذكور فيها ذلك اللفظ معرَّفا بالألف واللام، وهي الآية الخمسون بعد المائة: (قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ اللهُ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ)؛ وذكر لفظ «حجة» في الآية الثالثة عشرة والرابعة عشرة من سورة الشورى، غير أنه ورد في آخرتهما مضافا إلى المشركين: (فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (13) وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ)؛ وأضيف ذلك اللفظ الإضافة نفسها في الآية الرابعة والعشرين من سورة الجاثية، وهي آخر مواضعه في الكتاب العزيز: (وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوْا ائْتُوْا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ).

ومن شقائق لفظ «حجاج» مما ذكر في القرآن الكريم الفعل «حَاجَّ»، كما في الآية السابعة والخمسين بعد المائة الثانية من سورة "البقرة": (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِ بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا أَنْتَ مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ)؛ وورد هذا الفعل في الآية الواحدة والثمانين من سورة الأنعام مضافا إلى إبراهيم مرتين، حيث جاء في الأولى ماضيا على الغياب، وفي الثانية مضارعا على الخطاب: (وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا)؛ وقد تقدم في الآية الرابعة عشرة من سورة الشورى ذكر هذا الفعل، إذ تصدر ثمة ماضيا زمنه غائبا ضميره؛ وفي الآيات: ستون وأربعة وستون وخمسة وستون من سورة "آل عمران" مصرف لفعل

«حَاجَّ» على ثلاثة مجار: مجرى الماضي المخاطب المفرد «حَاجَّكَ»، ومجرى الماضي المخاطب الجمع «حَاجَجْتُمْ»، ومجرى المضارع المخاطب الجمع «تُحَاجُّونَ»؛ وواطأ ذلك الفعل في الآية السابعة والأربعين من سورة غافر على مجرى مضارع غائب جمع ذي شركة، وهو الفعل «يَتَحَاجَّونَ».

فهذه إذاً شقائق مصطلح «حجاج» في القرآن الكريم، لست تجد سواها، أما المصطلح نفسه فلا عثير له فيه، وتفسير ذلك المقارب له أن الله سبحانه وتعالى جعل من تمام الإبلاس لعرب البعثة النبوية أن يكون القرآن بلسانهم وعلى مذهبهم في البيان، فاللفظ فيه لفظهم والطريقة طريقتهم، لكن النمط فريد معجب لم يمضغوا له شيحا ولا قيصوما، وعال محصن لم يظهروه ولم يستطيعوا له نقبا؛ وثقيل يحطم ما تحته؛ قلت قد كان من تمام إبلاس القوم أن لا يزيد القرآن على مابين أيديهم من العبارة شيئا كثيرا والله أعلم[1]؛ ولو أنهم عرفوا لفظ «حجاج» بدلالته على عمل الحجة وتعاوروه، لكان ذكره في القرآن شأنا قريبا، ولكنهم لا يعرفون منه إلا معنى "محجر العين"، وهذه أشعارهم المروية من لدن امرئ القيس إلى كعب بن زهير؛ لا تجد فيها ما يفيد الحجة من طريق «حجاج».

ومما يعضد قولي في تفسير خلو الكتاب العزيز من مصطلح «حجاج» خلو الحديث النبوي الشريف منه، فإن رسول الله ﷺ لم يقله في أحاديثه المجموعة في كتب الصحاح والسنن والمسانيد؛ وذلك لأنه لا يحسنه[2]، ولما كان لا يحسنه وهو أعلم العرب بلسانها، فإنه لفظ لم يَعْدُ في ذلك العهد دلالَته على مجرد مكان العين من الجمجمة؛ وكلامه في باب المحاجة لا يخرج عما هو مذكور في القرآن الكريم، اللهم زيادة واحدة من عنده ﷺ، وهي «حجيج» في قوله: «غير الدجال أخوَفُني عليكم، إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم وإن يخرج ولست فيكم فامرؤ حجيج نفسه والله خليفتي على كل مسلم» [3].

ولبث لفظ «حجاج» ليس فيه من المعنى المصطلح عليه عندنا شيء إلى أن أورده أبو الطفيل عامر بن واثلة على ذلك المعنى في شعر الشاهد فيه قوله:

وعند الندى ناهيك من أخي الندى وعند حجـــاج القوم قولي قاطـــع[4]

1- إلا ألفاظا معدودة مما أشكل على بعض الناس من الذين ذكرت الكتب أخبارهم، كمثل: «الأبّ»، و«حنانا»، و«تنقص»، وغير ذلك.

2- أي لا يعلمه، وهذا أدب في العبارة عن رسول الله ﷺ، والعرب تتأدب بمثله. معجم محمود محمد شاكر، إعداد: منذر محمد سعيد، المكتب الإسلامي، بيروت، 2007.

3- صحيح مسلم.

4- علي بن أبي الفرج البصري: المقامة البصرية، تحقيق: عادل جمال سليمان، وزارة الأوقاف المصرية، الجزء الأول، ص: 111.

وتذكر الروايات أن أبا الطفيل رأى رسول الله ﷺ في حجة الوداع يطوف بالبيت الحرام على ناقته ويستلم الركن بمحجنه، وأبو الطفيل ابن ثماني سنين يوم ذاك؛ وأنه والى عليّا في الخطوب المعروفة، وكان على رأس جيش خرج من الكوفة ليفك محمدا بن الحنفية من سجن عارم حيث أودعه عبد الله بن الزبير؛ وهو آخر من بقي ممن رأى رسول الله ﷺ [1].

وإذا قرَّت نسبة الشاهد من الشعر إلى صاحبه، يكون أبو الطفيل أول قائل لمصطلح «حجاج» يُروى قوله ويُدوَّن، ولعله في ذلك أحد رجلين، نابغ نابه يبتدئ في كلام الناس ما لا عهد لهم به، فهم يقولون حجاج ويعنون معاني لا تعدو عظْم الحاجب ومحجر العين[2]؛ أو شاعر ألجأته ضرورة الوزن أن يقول ما قاله وفي نفسه كلمة محاجّة أو كلمة تحاجّ، وكلاهما تقتضيه الأصول القرآنية السابقة: «حَاجَجْتُمْ» و«تُحَاجُّونَ» و«يَتَحَاجُّونَ»؛ ولقائل أن يقول إن كلمة «حجاج» تقتضيها أيضا تلك الأصول، ونجيبه بأنها تُقتضى منها بقاضي القياس فقط، ذلك أنها مسموعة في الناس بدلالتها على المعنى الحسي المعلوم، ولم يتحول أبو الطفيل عن ذلك المعنى إلا بأحد أمرين لا أحسن الترجيح بينهما الآن، وهما ابتداء وضع أو اتقاء ضرورة.

حاكى الخليل بن أحمد الفراهيدي أبا الطفيل في حمل كلمة «حجاج» على معنى عمل الحجة، وهو أول من صنع ذلك ممن وصلنا صنيعه، فقد أنشد في حضرة سليمان بن علي والي البصرة ينصح له ويبصِّره بما يجب عليه من واجب البلاغة، وهو ابن بيتها:

والخطاب البليغ عند حجاج الـــ ـــقوم يُزهى بمثله في النَّـــدِيِّ[3]

وذكر مصطلح «حجاج» كرة ثالثة سنة في السنة التي قتل فيها أحمد بن أبي دؤاد محمدا ابن عبد الملك بن الزيات، وقصة ذلك أن الجاحظ كان مظاهرا لهذا الوزير المقتول، فقبض عليه القاضي أبو دؤاد وامتحنه، فجرت بينهما محاورة فلج فيها الجاحظ، فأدرك عفو القاضي وإحسانه، وهنالك أنشد أبياتا يمدحه بها، وفيها ذكر ذلك المصطلح:

وعويـــصٍ من الأمـــــور بهـــيـــــمٍ غامضِ الشخص مظلمٍ مستور

---

[1]– نفسه. وانظر أيضا كتاب: «الأغاني» لأبي الفرج الأصفهاني، دار الكتب العلمية، بيروت، 2008، المجلد الثامن، ص: 143.

[2]– لسان العرب، مرجع مذكور، ص: 38.

[3]– أبو حيان التوحيدي: أخلاق الوزيرين، تحقيق: محمد بن تاويت الطنجي، دار صادر، بيروت، 1992، ص: 222.

قد تسهَّلتَ ما توعَّرَ منه بلسان يزينه التحبير

مثل وشي البُرود هلهله النسْـ ـحُ وعند الحجاج دُرٌّ نثير

حسن الصمت والمقاطع إمّا نطق القوم والحديث يدور

ثم من بعدُ لحظةً تورث اليـ ـسر وعرض مهذب موفور

وأورد الجاحظ هذه الأبيات في كتاب "*البيان والتبيين*"[1] الذي أهداه إلى القاضي أبي دؤاد عينه، لكنه لم ينسبها إلى نفسه، وإنما قدم لها بقوله: «قال الشاعر في مديح أحمد بن أبي دؤاد»، والذي نسبها إليه هو ياقوت الحموي في "*معجم الأدباء*" في النبذة التي نبذها لترجمته [2].

وإنك لترى أن المواضع التي اكتنفت مصطلح «حجاج» في سابقته الأولى القديمة هي الأبيات من الشعر دون سواها، وهذا أصل لائح أرجِّح به دعوى الضرورة الشعرية على دعوى الابتداء الملهم في تفسير اقتراح هذا الاصطلاح، ومما أتبلَّغ به إلى ذلك دليل سكوت الخليل والجاحظ عن المصطلح فيما حرراه من علمهما المدون في الكتب المعروفة، بل إن الجاحظ يزيد على دليل السكوت دليلَ العدول، إذ يعدل عن مصطلح «حجاج» بمصطلح «محاجة» في موضعين اثنين: أولهما قوله: «محاجة الخصوم ومناقلة الأكفاء ومفاوضة الإخوان» [3]، وثانيهما قوله: «أنك قرأت قولي في محاجة الصرحاء للهجناء» [4]؛ فإن العدول عنه في مساق التحرير العلمي بنسيبه الذي لم يُسمع له في الناس معنى سابق يوهن رابطة اشتقاقه، يجعل إيراده في مساق النظم الشعري عملا من أعمال الضرورة.

وإذا كانت الضرورة هي الأصل في مقترح مصطلح «حجاج» أولا على يد أبي الطفيل، وهي الأصل في إعادته ثانيا وثالثا على يدي الخليل والجاحظ، فإنها ما لبثت أن زالت عندما استحسن أهل العلم دلالته الاصطلاحية الجديدة وجعلوها مجازا يجوزون إليه من الدلالة الأصلية، تلك التي تتحدث عن عظم الحاجب من الهامة أو محجر العين من الجمجمة، فدرج مصطلح «حجاج» في مصنفاتهم مدرجا سريحا، ثم لا يزال يدرج مع تطاول الأعوام حتى بلغ في العصر الحديث غايته، فلا تجد من باحث في حقل العلوم الإنسانية يعدل به شيئا من الأسماء التي كانت لها الديباجة من قديم ك: «حجة» أو «محاجة» أو «تحاج» أو غير ذلك مما هو منبث من اشتقاق آخر ك: «برهان» أو

[1]– مكتبة الخانجي، القاهرة، 1985، الكتاب الأول، ص: 223.
[2]– دار قطري بن الفجاءة،
[3]– البيان والتبيين، مرجع مذكور، ص: 15.
[4]– رسائل الجاحظ، مناقب السودان،

«بيِّنة» أو «آية»، وإذا وجدت لجميع هذه الأسماء أو لبعضها استعمالا في حقل تلك العلوم، فاعلم أنها تندرج تحت باب القائمُ عليه مصطلح «حجاج»؛ فإنه المصطلح الشعار لما يعمل في الخطاب من أعمال معنوية ومبنوية، نقلية وعقلية، سبيلها أن تجعل لذلك الخطاب عند متلقيه مقنعا.

وجملة القول في هذا الموضع أن مصطلح «حجاج» لم يعرف عند العرب من قديم، إذ كان لفظه عندهم دالا على وقبة العين التي ينبت عليها الحاجب، أو شيئا قريبا من هذا؛ ومكُث على ذلك، فلم يرد في القرآن الكريم ولا في الحديث الشريف، وإن وردت فيهما شقائقه التي وقر فيها معنى الحجة؛ وظهر المصطلح في آخرة العهد الإسلامي في شعر منسوب إلى أبي الطفيل عامر بن واثلة، ومن بعده في أبيات للخليل وأخرى للجاحظ، وكان الظن فيه أن الضرورة أكرهت عليه، لكن التداول من بعد ذلك جعل يقره ويجيزه حتى صار في هذا العصر إمام بابه.

وأقول في خاتمة هذا التأصيل إني ارتفقت إليه بمرفق البحث الإلكتروني، ولولا ذلك لطال المكث فيه حولا كريتا، مع الجهد والمشقة والتكاليف؛ ولقد عرفت شائنة هذا النمط من البحث فاحترزت فيه بمحترزه، وامتحنته حتى عظمت الثقة فيه، وهذا هو الشأن فيه، ولئن اضطلع به أهل البحث على تلك الجادة، وراموا به تأصيل مصطلحات العلوم، لأخرجوا لهذه الثقافة الشريفة معجمها التاريخي[1]، ولفتحوا فيها فتحا من فتوحها المبينة.

ب_ تأثيل المصطلح

البديهة في المصطلح أنه لفظ ينقله ذو الحاجة فيه، وقد أشهد عليه، من معناه العامي الذي هو له بأصل وضعه إلى معنى خاصي هو عين تلك الحاجة، ومثاله مصطلح فحل؛ فهو لفظ جاز به صاحب الإربة فيه، من معناه العامي المعروف عند العرب، وهو معنى: الكريم المنجب من الإبل، إلى معنى خاصي لا يعرفه إلا المتأدبون من العرب، وهو معنى: الشاعر الذي يكون شاعرا ملء إهابه! ومن البديهة في المصطلح أيضا أن ينعقد نوع من المشابهة بين المعنيين المذكورين، وإلا فما هي العلة في اختيار الفحولة للضلاعة في الشعر، والرواية لتحصيله من الصدور ونقده وحفظه، وفي غير ذلك من الاصطلاحات، فما العلة ثمة إلا أن الأمور اشتباه كما قال علي رضي الله عنه؛ فقولك:

---

[1]- قال العلامة محمود محمد شاكر: «الاستهانة بالفروق [اللغوية] وإهمال التاريخ [تطور دلالة الألفـاظ] يؤديان أحيانا إلى تفاسد المعاني تفاسدا مبيرا، ويفضيان أحيانا أخرى إلى تخبط منهـك مغبتـه كـد وعرق، وإلى تخليط جامع عقباه ظلام مطبق وغبار». مداخل إعجـاز القـرآن، دار المـدني، جـدة، 2002،
ص: 123.

امرؤ القيس فحل، إضمار من قولك: امرؤ القيس كالفحل؛ وقولك: خلف الأحمر راوية؛ إضمار قولك: خلف الأحمر كالراوية.

وإذا كان من بديهة المصطلحات المشابهة بين المعنى العامي والمعنى الخاصي، فإن مما يصادر على هذه البديهة طمس سواد أهل الاصطلاح على المعنى الأول في موضع المعنى الثاني، فهم يتوهمون أن المعنى الاصطلاحي لا ينفك قويا سويا ما قطعوا دابر المعنى اللغوي فيه، والظن عندهم أن هذا المعنى شيء كالرغام من التبر، ولا يكون التبر ذهبا إبريزا إذا لم يُخَلَّص بخالصة النار، فكذلك خالصة حذقهم تنفي بزعمهم معنى التراب عن معنى الذهب في المصطلح، ليستوي نزيها وجيها! وهذا ومثله معه وَهْمٌ منهم، لأنهم إذ يصفّون المصطلح ويهذبونه: يهوّنونه، ويخسرون في ميزانه، وينقصون من مثقاله؛ فالمصطلح على رأي العلامة طه عبد الرحمان[1] لا يكون مصطلحا بعباريته فقط، أي بظاهر الدلالة المحكمة على المعنى الخاصي، ولكن بإشاريته أيضا، أي بباطن تلك الدلالة، وهو ذيلها في لغة الناس، من حيث اقتبست قبسها؛ وهذه الإشارية تنفع المصطلح وترفعه عند صاحبه المتفطن له، سواء الذي يلقيه أو الذي يتلقاه، فكلاهما يتوسع فيه بواسطتها إلى الغاية، ويعلو به إلى علو لا يظنه العباري يصل إليه؛ وخذ مصطلح فحل الذي ضربناه مثلا، هل يستقيم تصوره أو يغتني تدبره أو يصفو تذوقه، بمعزل عن تبيّن قوامه الإشاري المنتصب على المعاني التالية: الجمل الكريم المنجب، سهيل النجم العظيم المعتزل سائر النجوم، الحائط من النخل، الطَّرق والعلو، وغير ذلك من المعاني؛ وتبيّن القوام الإشاري على هذا الضرب، والاحتيال لمده في المعنى الاصطلاحي، والتلطف لذلك بما يثمر ثمرته فيه، هو الذي يسمى تأثيلا. فما تأثيل مصطلح «حجاج»؟

إن مما تقتضيه العبارة في هذا المصطلح أن تقول عنه: هو عمل العامل في كلامه بما يوقعه لدى مخاطبه موقع القول الوجيه المصدَّق، أما ما تقتضيه الإشارة فيه فطويل باعه رحيب صاعه، وقد جمعت بعضه على المعاني التالية:

– **<u>معنى القصد</u>**: وفي لسان العرب: «حجج: الحج: القصد. حج إلينا فلان أي قدم؛ وحجه يحجه حجا: قصده» [2]؛ وشأن هذا المعنى، وهو محض إشارة، أن يبسط في عبارة المصطلح ببسطة علم، كأن تقول مثلا: ال«حجاج» قصد من قاصد يلقيه إلى مقصود به يتلقاه، فهذان طرفان لا بد منهما، فأما أولهما فذو ضالة يطلبها، وأما الثاني فهو محل هذه الضالة، وهي عنده في صدر له ثلاثة أحوال لا يعدوها: حال الصدر المنبسط، وهي التي تعرف بخلو الذهن، وحال الصدر المنقبض، وقد قبضها التكذيب

[1]– فقه الفلسفة 1: القول الفلسفي/ كتاب المفهوم والتأثيل، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء/ بيروت، 1999.

[2]– لسان العرب، 2004، مادة: حجج، المجلد الرابع، ص: 38.

لصاحب الضالة والإنكار عليه، وحال الصدر المتذبذب، وهي في شك وريبة، تُبسط بداعية الوثوق، وتُقبض بداعية الاتهام؛ ومن الكرامة للقصد الحجاجي أن يكون مقتصدا، فلا ينخذل بدهان ومداورة، ولا ينعضل بلدد ومساورة، ولكن يعتدل على كلمة سواء (مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ) [1].

– معنى الحفظ: جاء في لسان العرب: «والحَجاج والحِجاج: العظم النابت عليه الحاجب. والحِجاج: العظم المستدير حول العين (...) والحَجاج: العظم المطبق على وقبة العين وعليه منبت شعر الحاجب (...) وفي الحديث: كانت الضبع وأولادها في حجاج عين رجل من العماليق؛ ومنه حديث جيش الخَبَط: فجلس في حجاج عينه كذا كذا نفرا، يعني السمكة التي وجدوها على البحر»[2]؛ وهذا المعنى من أقوى المعاني الإشارية المكنونة في مصطلح «حجاج»، ولولا أن الأصل في هذا المصطلح الضرورة الملجئة لقلنا إنه يستبطن المشابهة التي تكون بديهة في المصطلحات، فلك أن تقول: قول حجاج، وأنت تضمر المثال: قول كالحجاج في حفظ الرأي وصيانته، ولكن أالضرورة تمنع بديهة المشابهة؟! إنني أقدر أن أبا الطفيل كان يتيمم لفظا من ألفاظ الحجة المعروفة، فلم يسعفه الوزن إلا على لفظ «حجاج»، فاتخذه، ولم يتخذه بقوة الضرورة فقط، بل بقوة ما في هذا اللفظ نفسه من الإشارة الممدة للمصطلح، فلا شك عرف ذلك ووقف عليه، وهو رجل موفور العقل والأدب! ثم تولاه من بعده الخليل والجاحظ، وهما من هما في معرفة أقدار الكلمات!

وإذاً، ففي مصطلح «حجاج» إشارية من الحفظ والصيانة تمد له من سعة القول مدا، وتمهد له في قوة الرأي تمهيدا؛ فهو الحافظ لما يلقى من الكلام أن يزل أو يذل أو يضل، وهذه ثلاثة مكاره يقي منها الحجاج بجُنَّة من الوقاية؛ بثقاف يدفع الزلل، وبهيبة تعصم من استخفاف الخصوم، وبشواهد على الطريق تهدي إلى الضالة، ولهذا الطيف الثالث من الإشارة في لفظ «حجاج» أصل، حيث يقال: «محجة» [3]، ويقصد بها السبيل الهادية. ولك أن تسترسل في الاستشكال على هذه الجادة، فتقول إن الحفظ الحجاجي يقتضي محفوظا، وهذا المحفوظ لا محالة علق نفيس، وإلا فما داعية حفظه؟ وفي المشابهة غير بعيد يقابل القولُ في المعنى الخاصي العينَ في المعنى العامي؛ فالأقوال عيون، وكل من قال قولا في ملإ من الناس، فقد عرض عينيه بين يديه، فلا جرم يتخذ العاقل لقوله حجاجا يحفظه!

---

[1]– سورة النحل، الآية: 66.
[2]– لسان العرب، مرجع مذكور، ص: 38.
[3]– نفسه.

ويمكن أن نزيد في الاستشكال، فننقّب في معنى الحفظ عن معنى الحلية، وفي التأثيل تصداق ذلك[1]، فنقول إن الحجاج الذي في الرأس حفظ للعين وزينة لها من فوق الحفظ، فهي في موضعها أحسن ما يُرى من الوجه المليح، وكمثله الحجاج الذي في القول، إذ يسبغ عليه، بفضل ما يعقد فيه من عرى النقل والعقل، من محاسن الحكمة والبيان.

– معنى الإصلاح: يقول ابن منظور: «حج الشجة يحجها حجا، إذا سبرها بالمِيل ليعالجها (...) يحج: يصلح مأمومة شجة بلغت أم الرأس (...) والحج أن يُشجّ الرجل فيختلط الدم بالدماغ، فيصب عليه السمن المغْلى حتى يظهر الدم فيؤخذ بقطنة، والحجيج من الشِّجاج الذي قد عولج، وهو ضرب من علاجها» [2]؛ وهاهنا إشارية قيِّمة، لو تزوَّد بها مصطلح «حجاج» لاكتسب مدلولا أخلاقيا قويا، يوطنه أن يطلب المعالي مما يسعه أن يطلبه، كنصرة حق، أو إبطال باطل، أو دفع شبهة، وأن يَذَرَ ما دون ذلك مما ليس بسبيل من الإصلاح؛ فالحجاج سفير مصلح، مسدد مقارب، ينزع سخيمة الصدور، ويكشف ظلمة السرائر، ويهتك حجاب الهوى. وإذا لم يعمل الحِجاج بهذه السيرة، فبأي سيرة ألا ليت شعري يعمل! ﴿وَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ﴾[3].

وجاء في مقالة ابن منظور الآنفة أن مداوي الجرح لا يحسن أن يصلحه ما لم يسبره، فكذلك صاحب الحجاج لا يفقه أن يعمل به عمله الصالح ما لم يكن بالغا به محلَّه، بآلة تامة وأسباب قوية، أو قل بطريق التمثيل، *ما لم يكن لحجاجه بلاغة كبلاغة البازي*؛ فبلاغةُ هذا الجارح حدةٌ في لحظه وخطفة في حمله، وبلاغة ذلك العاقل المصلح تبصرة بمواضع حجته وحسن تأد إليها[4].

ويمكن الزيادة في استشكال التأثيل بأكثر مما ذكرته، ولكني أجتزئ بالميسور القريب الذي يحصل به الغرض؛ وقد آنست حصولَه، فأنا أتخلص إلى تقرير ثمرته قائلا:

نفع التأثيل مصطلحَ «حجاج» بأن أورد عبارته مورد إشارية مَعينية ظاهَرْتُهُ بثلاثة معان معتبرة:

---

[1]– يقول ابن منظور: «الحِجَّة والحَجَّة ثقبة شحمة الأذن. والحَجَّة أيضا: خرزة أو لؤلؤة تعلق في الأذن». لسان العرب، ص: 39.

[2]– لسان العرب، مرجع مذكور، ص: 38.

[3]– سورة يونس، الآية: 38.

[4]– من تعريفات البلاغة في: «البيان والتبيين» التعريف التالي: «جماع البلاغة البصر بالحجة والمعرفة بمواضع الفرصة»، الجزء الأول، ص: 88.

– معنى القصد: وفضله عليه أنه جعل له هيئة صاحب ضالة يطلبها، مصورا هذه الضالة في السويداء من صدور ثلاثة: منبسط ومنقبض ومتذبذب، ثم قضى فيه بالاقتصاد.

– معنى الحفظ: وفضله عليه أنه أكبر عنده أمانته في الأقوال، بتهذيبه إياها من النقص، وإكرامها من البخس، وهدايتها السبيلَ البالغة، وزاد على إكبار أمانته استحسانَ حليته التي يورثها محلَّه من القول.

– معنى الإصلاح: وفضله عليه تذكرته إياه بالمطالب العالية من دمغ بالحق وزهق للباطل وهتك للشبهة، وتبصرته بحظه من البلاغة المؤدية إلى تلك المطالب.

وختاما، فهذه آخرة القول في مصطلح «حجاج»، وهي محلة التذكير بنتائجه، وأول ذلك التأصيل للفظه، وقد تبين به أن هذا اللفظ درج بين الناس منذ قديم على معنى وَقبة العين وعَظْم حاجبها، ثم اكتسب مع أبي الطفيل دلالة اصطلاحه على معنى عمل الحجة باكتساب ضروري، وواطأ على هذه الضرورة من بعده الخليل والجاحظ، فطار من بعدهما في أهل العلم كل مطار، ولا سيما في هذا العصر؛ أما الشأن الثاني في مصطلح «حجاج»، فهو التأثيل لمعناه، وبه اعتلق هذا المعنى إشارية نافعة مدارها على ثلاثة لُمَع: قصد، وحفظ، وإصلاح؛ وكلها تزيد من زاده، وتلهم فيه بلطائف من الإلهام تتفاوت الحظوظ منها بتفاوت العقول.